المدرسة الفقهية
في العراق وأثرها
في النهضة المعرفية

إعداد
د.أيمن صالح مرعي السامرائي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين...أما بعد

فالنهضة المعرفية في أي بلد من البلدان تستند إلى مجموعة من العلوم، منها: الشرعية، والإنسانية، والعلمية، ونحوها؛ وعليه جاء هذا المؤتمر المبارك ليُسلّط الضوء على دور العراق في النهضة المعرفية، وبالحديث عن العلوم الشرعية التي كان لها دورًا بارزًا في النهوض بالمعرفة في العراق؛ لا يُمكن إغفال دور المدرسة الفقهية في العراق وأهميتها في النهوض بالمعرفة؛ لا سيما وأن العراق بلد المدارس الفقهية المختلفة كالحنفي والحنبلي وغيرهم من كبار الفقهاء الأعلام، وأئمة المذاهب الكرام، عليهم الرحمة والرضوان، والحقيقة يصعب حصر كل ما يتعلق بأثر المدرسة الفقهية في العراق ببحث، ولكن هذا البحث هو تطواف على ملامح تلك المدرسة وأثرها في النهوض بالمعرفة في العراق.

- **أهمية البحث**: تكمن أهمية البحث في تسليط الضوء على المدارس الفقهية في العراق، ودورها في النهضة المعرفية؛ من خلال النشأة والظهور، ونتاج تلك المدارس وما خلّفته من علوم غزيرة ما زال نفعها قائم حتى يومنا هذا.
- **سبب اختياره**: استوقفني محور من محاور المؤتمر ألا وهو: العلوم الشرعية وأثرها في النهضة المعرفية؛ ولمّا كان الحديث عن العلوم الشرعية؛ فالفقه الإسلامي والمدارس الفقهية المنبثقة عنه، من العلوم الشرعية الأساسية في النهضة المعرفية في العراق؛ لذا جاء هذا البحث.

- **الصعوبات التي واجهت الباحث:** الصعوبة التي واجهها الباحث هي قلة المصادر المتعلقة بالنهضة المعرفية، أو بالأحرى الجانب التأصيلي التنظيري للنهضة المعرفية كمصطلح يكاد يكون نادر.
- **المنهجية في البحث:** المنهج المتبع في هذا البحث هو: **المنهج الاستقرائي:** وذلك من خلال استقراء نشأة المذاهب الفقهية، وظهورها في العراق، وأثر ذلك في النهضة المعرفية، كما رُوعي في ترتيب قائمة المصادر والمراجع: الترتيب الهجائي بحسب اسم الشهرة للمؤلف، دون اعتبارٍ لـ: (الهمزة، الـ، إبن، أبو).
- **الدراسات السابقة:** المدارس الفقهية تناولتها كثير من الكتب والمؤلفات، خصوصًا كتب تاريخ التشريع الإسلامي، والمداخل لدراسة الفقه الإسلامي ونحوها، منها: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للشيخ عبدالكريم زيدان –رحمه الله–، والفقه الإسلامي وأدلته للشيخ وهبة الزحيلي –رحمه الله–، وتاريخ التشريع الإسلامي للشيخ مناع القطان، والمدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية للشيخ عمر الأشقر، ونحو ذلك، أما الكتب والدراسات المتعلقة بالنهضة المعرفية تكاد تكون نادرة.
- **خطة البحث:** انقسم البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة، بيانها بالآتي:

أما المقدمة: فقد تناولت العناصر المطلوبة في البحث العلمي، من أهمية، ومنهج، ونحو ذلك.

وأما المبحث الأول: فقد تناول التعريف بمصطلحات البحث.

وأما المبحث الثاني: فقد تناول أثر المدرسة الفقهية في العراق في النهوض بالمعرفة.

وأما الخاتمة: فقد تضمنت أهم النتائج والتوصيات التي خَلُص إليها البحث.

المبحث الأول

التعريف بمصطلحات البحث

وفيه المطالب الآتية:

المطلب الأول: مفهوم المدرسة:

أولاً: تعريف المدرسة في اللغة: أصلها من دَرَسَ: تَدُلُّ عَلَى خَفَاءٍ وَخَفْضٍ وَعَفَاءٍ، فَالدَّرْسُ: الطَّرِيقُ الْخَفِيُّ. يُقَالُ دَرَسَ الْمَنْزِلُ: عَفَا. وَمِنَ الْبَابِ: دَرَسْتُ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الدَّارِسَ يَتَتَبَّعُ مَا كَانَ قَرَأَ، كَالسَّالِكِ لِلطَّرِيقِ يَتَتَبَّعُهُ. ودَرَسَ الكتابَ يَدْرُسُه دَرْساً ودِراسَةً ودارَسَه، كأَنه عَانَدَهُ حَتَّى انْقَادَ لِحِفْظِهِ، ودَرَسْتُ الْكِتَابَ أَدْرُسُه دَرْساً أَي ذللته بكثرة القراءة حتى خَفَّ حِفْظُهُ عليَّ، وَمِنْهُ دَرَسْتُ السورةَ أَي حَفظتها،[1] قال تعالى: **{كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ}** [الأنعام: ١٠٥]، ورد عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قوله في تفسير دَرَسْتَ بأنها: قرأت وتعلمت.[2]

ثانيًا: تعريف المدرسة في الاصطلاح: مكان الدرس والتعليم، وجماعة من الفلاسفة أو المفكرين أو الباحثين تعتنق مذهبًا معينًا، أو تقول برأي مشترك، ويُقال هو من مدرسة فلان على رأيه ومذهبه.[3]

المطلب الثاني: مفهوم الفقهية:

أولاً: تعريف الفقه في اللغة: مادة فقه في اللغة: أصل صحيح يدل على إدراك الشيء والعلم به، والفقه في الأصل يأتي بمعنى الفهم، يُقال: أُوتي فلان فقهًا في الدين،

---

(١) يُنظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٢، ص٢٦٧. ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٧٩.

(٢) يُنظر: ابن الجعد، مُسند ابن الجعد، حديث رقم ٤٤٤، ص٨٠. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣١٣.

(٣) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ص٢٨٠.

أي فهمًا فيه، ومنه قوله تعالى: {**لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ**} [سورة التوبة: ١٢٢]، وكل علم لشيء فهو فقه، وغلب على علم الدين؛ لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم كما غلب النجم على الثريا.(١)

ثانيًا: تعريف الفقه في الاصطلاح: الفقه في بادئ الأمر لم يختص بموضوع معين، بل كان عامًّا يشمل الأحكام الاعتقادية من وجوب الايمان ونحوه، والوجدانية من الاخلاق والتصوف، والعملية من الصلاة والصوم ونحوها، وعلى ذلك الأساس فقد عرف أبو حنيفة الفقه بأنه: "معرفة النفس ما لها وما عليها"،(٢) وقد سمى كتابه في العقائد بالفقه الأكبر.(٣)

ثم خُصّص تعريف الفقه فيما بعد ليُصبح: "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسَبُ من أدلتها التفصيلية".(٤)

---

(١) يُنظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٤، ص٤٤٢. ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٥٢٢. الفيروز آبادي، القاموس المحيط. ص١٢٥٠.

(٢) يُنظر: التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح، ج١، ص١٦. عبد العزيز البخاري، كشف الأسرار، ج١، ص٥.

(٣) قال الشيخ وهبة الزحيلي –رحمه الله–: "وعموم هذا التعريف كان ملائماً لعصر أبي حنيفة الذي لم يكن الفقه فيه قد استقل عن غيره من العلوم الشرعية، ثم استقل، فأصبح علم الكلام "التوحيد" يبحث في الاعتقاديات، وعلم الأخلاق والتصوف كالزهد والصبر والرضا وحضور القلب في الصلاة ونحوها، يبحث في الوجدانيات. وأما الفقه المعروف حالياً فموضوعه أصبح مقصوراً على معرفة ما للنفس وما عليها من الأحكام العملية، وعندئذ زاد الحنفية في التعريف كلمة "عملا" لتخرج الاعتقاديات والوجدانيات". وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٢٩–٣٠.

(٤) البيضاوي، منهاج الوصول. ص١٧.

ومن خلال ما سبق في المطلب الأول والثاني يُمكن **تعريف المدرسة الفقهية** بأنها: "طريقة ينتهجها الفقيه، فيأخذها عنه غيره، ويتابعونها عليها، وبذلك تُصبح تيارًا ومسلكًا، يُعْرَفُون بها دون غيرهم".(١)

"وقد نُسبت المدارس في بداية الأمر إلى المدائن التي نشأت فيها، فالمدينة المنورة هي مهد مدرسة أهل الحديث، والكوفة مهد مدرسة أهل الرأي، ثم خرجت كل واحدة من المدرستين من مهدها، فشكلت تيارًا له أتباعه في مختلف ديار الإسلام، فعُرفت مدرسة أهل المدينة بمدرسة أهل الحديث، ومدرسة الكوفة باسم مدرسة أهل الرأي".(٢)

المطلب الثالث: مفهوم الأَثر:

أولاً: تعريف الأَثر في اللغة: "الْهَمْزَةُ وَالثَّاءُ وَالرَّاءُ، لَهُ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: تَقْدِيمُ الشَّيْءِ، وَذِكْرُ الشَّيْءِ، وَرَسْمُ الشَّيْءِ الْبَاقِي".(٣) **والأَثر:** لَفْظٌ مُفْرَد جَمْعُهُ آثَارٌ، والأَثر، بِالتَّحْرِيكِ: مَا بَقِيَ مِنْ رَسْمِ الشَّيْءِ، وأَثَّرَ فِي الشَّيْءِ: تَرَكَ فِيهِ أَثراً.(٤)

وهناك معانٍ أخرى وردت لمعنى الأثر في اللغة منها: الاستقفاء والاتباع، والخبر، والأجل؛ لأنه يتبع العمر، وأثر السيف ضربته، يُقال: من يشتري سيفي وهذا أثره.(٥)

ولعل أنسب المعاني للمعنى المراد في هذا البحث هو أن الأثر: ما يترك ويُبقي علامة في الشيء.

---

(١)) عمر الأشقر، المدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية، ص١١.

(٢)) المصدر نفسه، ص١١.

(٣)) ابن فارس، مقاييس اللغة. ج ١، ص ٥٣.

(٤)) يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٥-٦. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ٣٤١.

(٥)) المصادر أنفسها.

وقد وردت كلمة الأثر في القرآن الكريم وفي السنة النبوية[١]: فمن القرآن: قوله تعالى: **{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}** [سورة يس:١٢]، أَي نكتب ما أسلفوا من أَعمالهم، وآثارهم التي آثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك إِن خيرًا فخير وإِن شرًّا فشر.[٢] ومن السنة: روى أبو سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال: "**رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْجُدُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ، حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ فِي جَبْهَتِهِ**".[٣]

ثانياً: تعريف الأثر في الاصطلاح: "الأثر له ثلاثة معان في الاصطلاح: أحدها: بمعنى النتيجة، وهو الحاصل من الشيء، وثانيها: بمعنى العلامة، وثالثها: بمعنى الجزء".[٤]

والذي يناسب البحث من المعاني الثلاثة هو المعنى الأول: الذي هو النتيجة، أي الحاصل من الشيء، والله أعلم.

المطلب الرابع: مفهوم النهضة المعرفية:

أولاً: تعريف النهضة: جاءت من نَهَضَ، النُّونُ وَالْهَاءُ وَالضَّادُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ فِي عُلُوٍّ. وَنَهَضَ مِنْ مَكَانِهِ: قَامَ. وَمَا لَهُ نَاهِضَةٌ، أَيْ قَوْمٌ يَنْهَضُونَ فِي أَمْرِهِ

---

(١)) ومن الملاحظ هنا أن الأثر الذي أورده من الكتاب والسنة قد لا يكون موافقاً لمعنى الأثر الذي أقصده في البحث ولكن أذكره من باب التبرك وتأصيل اللفظ شرعاً.

(٢)) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. ج٦، ص٥٠٢.

(٣)) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الأذان، باب من لم يمسح جبهته وأنفه حتى صلى، حديث رقم٨٣٦، ج١، ص١٦٧.

(٤)) الجرجاني، التعريفات. ص٩.

وَيَقُومُونَ بِهِ، والنُّهوضُ: البَراحُ مِنَ الْمَوْضِعِ والقيامُ عَنْهُ، نهَضَ يَنْهَضُ نَهْضاً ونُهوضاً وانْتَهَضَ أَي قامَ، والنَّهْضةُ: الطَّاقةُ والقوَّةُ. وأَنهضه بِالشَّيْءِ: قوَّاه عَلَى النُّهوضِ بِهِ.(١)

ثانيًا: تعريف المعرفة: جاءت من عَرَفَ، والْعَيْنُ وَالرَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، منها ما يدل عَلَى السُّكُونِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، ومنه الْمَعْرِفَةُ وَالْعِرْفَانُ. تَقُولُ: عَرَفَ فُلَانٌ فُلَانًا عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً. وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ مِنْ سُكُونِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا تَوَحَّشَ مِنْهُ وَنَبَا عَنْهُ.(٢) والمَعْرِفةُ: "إِدْراكُ الشيءِ بتَفَكُّرٍ وتَدَبُّرٍ لأَثَرِه، فَهِيَ أَخصُّ من الْعلم، ويُضَادُّه الإِنكارُ، ويُقال: فلانٌ يعرِفُ الله وَرَسُوله".(٣) والمعرفة أيضًا: "إدراك الشيء على ما هو عليه".(٤)

ومن خلال ما سبق يُمكن **تعريف النهضة المعرفية** بأنها: القيام والارتقاء بالمعارف المختلفة، من خلال أُسس وضوابط معينة، متعلقة بالإدراك والتفكر والتدبر.

المبحث الثاني

أثر المدرسة الفقهية في العراق في النهوض بالمعرفة

وفيه المطالب الآتية:

المطلب الأول: نشأة المذاهب الفقهية وبروزها في العراق:

أولًا: المذهب الحنفي: مؤسس المذهب هو الإمام الأعظم أبو حنيفة، النعمان بن ثابت بن زُوَطَى الكوفي من أبناء فارس الأحرار، ولد عام (٨٠)، وتوفي عام (١٥٠هـ) رحمه

---

(١)) يُنظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٥، ص٣٦٣-٣٦٤. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٢٤٥.

(٢)) يُنظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٤، ص٢٨١. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٨٣٦.

(٣) الزبيدي، تاج العروس، ج٢٤، ص١٣٣.

(٤) الجرجاني، التعريفات، ص٢٢١.

الله، عاصر أوج الدولتين الأموية والعباسية. وهو من أتباع التابعين، وقيل: من التابعين. وهو إمام أهل الرأي، وفقيه أهل العراق، قال الشافعي عنه: "الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه"،[١] كان تاجر قماش بالكوفة.

شيوخه: فقد كان من أبرز شيوخه وأكثرهم أثرًا في نهجه الفقهي شيخه حمَّاد بن أبي سليمان فقيه أهل الرأي في العراق، الذي تلقى فقهه عن فقيه رأي كبير هو إبراهيم النخعي، وهذا أخذ فقهه عن فقيه رأي أيضًا وهو علقمة بن قيس النخعي، وعلقمة أخذ الفقه عن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه– الصحابي الجليل المعروف بالفقه والرأي.[٢]

أما تلاميذه: فللإمام الأعظم تلامذة كثر، ومن أشهر تلامذته:

١. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الكوفي (١١٣ – ١٨٢هـ): قاضي القضاة في عهد الرشيد، وكان مجتهداً مطلقاً.[٣]

٢. محمد بن الحسن الشيباني (١٣٢ – ١٨٩هـ): ولد بواسط، وكان والده من أهل حرستا بدمشق، ونشأ بالكوفة، وعاش في بغداد، وتوفي بالري، تفقه أولاً على أبي حنيفة، ثم أتم تعلمه على أبي يوسف، ولازم مالك بن أنس مدة، وانتهت إليه رياسة الفقه بالعراق بعد أبي يوسف، وكان نابغة من أذكياء العلم ومجتهداً مطلقاً.[٤]

---

(١)) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٣، ص٣٤٥.

(٢)) عبدالكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص١٥٦.

(٣)) يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٥٣٥. وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٤٤.

(٤)) يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٩، ص١٣٤. وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٤٤.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة –رحمه الله–: "اتجه أبو حنيفة إلى الفقه بعد أن خاض فيما كانت تخوض فيه الفرق المختلفة، وقد اتجه إلى دراسة الفتيا على المشايخ الكبار الذين كانوا في عصره، ولزم واحدًا منهم، أخذ عنه وتخرج عليه، ويظهر أنه أحس بجدوى ذلك عليه،...ولقد كانت الكوفة في عهده موطن فقهاء العراق، كما كانت البصرة موطن الفرق المختلفة، ومن كانوا يخوضون في أصول الاعتقاد، وقد كانت تلك البيئة الفكرية لها أثرها في نفسه"،[١] حتى لقد قال هو في بيان ذلك: "كنت في معدن العلم والفقه، فجالست أهله، ولزمت فقيهًا من فقهائهم".[٢]

ثانيًا: المذهب المالكي: مؤسس المذهب هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، إمام دار الهجرة فقهاً وحديثاً بعد التابعين، ولد في عهد الوليد بن عبد الملك عام (٩٣هـ)، ومات –رحمه الله– في عهد الرشيد في المدينة عام (١٧٩هـ)، ولم يرحل منها إلى بلد آخر، عاصر كأبي حنيفة الدولتين الأموية والعباسية، لكنه أدرك من الدولة العباسية حظاً أوفر، وقد اتسعت الدولة الإسلامية في عصر هذين الإمامين، فامتدت من المحيط الأطلسي غرباً إلى الصين شرقاً، ووصلت إلى أواسط أوربا بفتح الأندلس. [٣]

---

(١)) أبو زهرة، أبوحنيفة حياته وعصره–آراؤه وفقهه، ص٢٥.

(٢)) كثير من الفقهاء المعاصرين ينسب هذا القول لأبي حنيفة، منهم: الإسكندري، التحرير في أصول الفقه، ص٨. أبو زهرة، أبوحنيفة حياته وعصره–آراؤه وفقهه، ص٢٥. محمد عويضة، أعلام الفقهاء والمحدثين، ص١٩. ومنهم من أشار إلى أن الخطيب أورده في تاريخ بغداد؛ إلا أنني بحثت في تاريخ بغداد فما وجدته.

(٣)) وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٤٥.

ولعل سائل يسأل إذا كان البحث يدور حول المدرسة الفقهية في العراق؛ فما علاقة مذهب الإمام مالك –رحمه الله– بذلك؟ خصوصًا إذا ما علمنا بأنه إمام دار الهجرة وولد ومات في المدينة –صلى الله على ساكنها– ولم يرحل أو يخرج منها؟

إن البدايات الأولى للاهتمام المالكي بالعراق ومنهج العراقيين قد بدأت في حياة الإمام مالك –رحمه الله تعالى–، ولعل في قصة أسد بن الفرات مع الإمام مالك ما يشير إلى هذا الاهتمام: "قال أسد: لما خرجت من المشرق وأتيت المدينة فقصدت مالكاً، وكان إذا أصبح خرج آذنُه، فأدخل أهل المدينة، ثم أهل مصر، ثم عامة الناس، فكنت أدخل معهم، فرأى مالك رغبتي في العلم، فقال لآذِنِه: أدخل القروي مع المصريين، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة قلت له: إن لي صاحبين، وقد استوحشت أن أدخل قبلهما، فأمر بإدخالهما معي، وكان ابن القاسم وغيره يجعلونني اسأل الإمام مالكاً، فإذا أجابني قالوا لي: قل له فإن كان كذا وكذا؟، فضاق علي يوماً وقال: هذه سلسلة بنت سلسلة، إن كان كذا كان كذا وإن أردت فعليك بالعراق".[1]

وتوالى الاهتمام المالكي بالعراق إلى أن دخل المذهب العراق على يد بعض تلاميذ الإمام مالك، كعبد الرحمن ابن مهدي العنبري أحد الأعلام المشهورين في علم الرجال، وعبدالله بن مسلمة بن قعنب التميمي، ثم أحمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم، والذي له الفضل الأكبر في نشر المذهب المالكي في البصرة، ثم قويت شوكة المذهب المالكي في العراق بدخول أسرة بني حماد إلى العراق، وهي أسرة فارسية الأصل تحولت إلى العراق، وكانت لها علاقة وطيدة بالخليفة العباسي المأمون، وكان لهذه العلاقة الأثر البالغ في

(١)) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٣، ص٢٩٢.

انتشار المذهب المالكي في العراق،[١] يوضح لنا القاضي عياض المكانة المرموقة لهذه الأسرة والأثر البالغ لها في نشر المذهب في العراق حيث يقول: "كانت هذه البيتة على كثرة رجالها وشهرة أعلامها من أجل بيوت العلم بالعراق وأرفع مراتب السؤدد في الدين والدنيا، وهم نشروا هذا المذهب هناك ومنهم اقتبس".[٢] وقد نبغ من هذه الأسرة علماء كثيرون كان أشهرهم القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد صاحب كتاب المبسوط، وهو الكتاب الذي يعد أحد الدواوين الستة في المذهب المالكي، وقد كان له فضل كبير في نشر المذهب في العراق.[٣] وقد ذكر الخطيب البغدادي أنه قد كان لإسماعيل هذا فضل في نشر المذهب المالكي في العراق حيث قال: "كان منشؤه البصرة وأخذ الفقه على مذهب مالك عن أحمد بن المعذّل وتقدم في هذا العلم حتى صار علماً فيه، ونشر من مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، وصنّف في الاحتجاج لمذهب مالك، والشرح له ما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه وطريقاً يسلكونه".[٤]

ومن خلال ما سبق يظهر لنا اتساع المدرسة الفقهية العراقية التي احتوت أغلب المذاهب الفقهية ومنها مذهب الإمام مالك –رحمه الله–، وهذا مما يُدلل على النهضة المعرفية التي كانت موجودة في العراق.

---

(١)) عبدالمجيد الصلاحين وإسماعيل البريشي، سمات المدرسة العراقية في المذهب المالكي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، ص٦٤.

(٢)) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٤، ص٢٧٦.

(٣)) عبدالمجيد الصلاحين وإسماعيل البريشي، سمات المدرسة العراقية في المذهب المالكي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، ص٦٤.

(٤)) الخطيب، تاريخ بغداد، ج٦، ص٢٨٣.

ثالثًا: المذهب الشافعي: مؤسس المذهب هو الإمام أبو عبد الله، محمد بن إدريس القرشي الهاشمي الْمُطَّلبي بن العباس بن عثمان بن شافع رحمه الله، يلتقي نسبه مع الرسول صلّى الله عليه وسلم في جده عبد مناف، ولد في غزة بفلسطين الشام عام (١٥٠هـ)، وهو عام وفاة أبي حنيفة، وتوفي في مصر عام (٢٠٤هـ).[١]

تنقّل الإمام الشافعي رحمه الله في طلبه للعلم بين أماكن عدة، حتى قدِم بغداد سنة ١٨٤، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، نزل عند محمد بن الحسن، وكان من قبل يسمع باسمه وفقهه، وأنه حامل فقه العراقيين وناشره. أخذ الشافعي يدرس فقه العراقيين، فقرأ كتب الإمام محمد وتلقاها عليه، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق، اجتمع له الفقه الذي يغلب عليه النقل، والفقه الذي يغلب عليه العقل، وتخرج بذلك على فحول الفقه في زمانه.[٢]

كما أخذ ببغداد عن: وكيع بن الجراح، وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وأبو أسامة حماد بن أسامة الكوفي، وإسماعيل ابن علية، وهؤلاء الأربعة من حفاظ الحديث النبوي. وقد أقام الشافعي مدة ببغداد، سافر بعدها عائدًا إلى بلده مكة، ليعقد بها أول مجالسه في الحرم المكي. ثم عاد الشافعي من مكة إلى بغداد، وذلك سنة ١٩٥ هـ، وقد بلغ من العمر خمسًا وأربعون سنة، وقد استوى عالماً له منهجه المتكامل، ومذهبه الخاص به. وقد كان للشافعي في هذه الرحلة الثانية أثر واضح على الحياة العلمية في بغداد. ثم رجع الإمام الشافعي –رحمه الله– إلى مكة، ليعود إلى بغداد مرة أخيرة في سنة

---

(١)) عبدالكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص١٦٧. وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٥٠.

(٢)) أبو زهرة، الشافعي حياته وعصره–آراؤه وفقهه، ص٢٣.

١٩٨ هـ، إلا أنه لم يمكث في هذه المرة الأخيرة غير بضعة أشهر عزم فيها على الرحيل إلى مصر.[١]

غادر الإمام الشافعي –رحمه الله– بغداد بعد أن نشر بها مذهبه، وترك بها عددًا كبيرًا من أصحابه تولوا بعده نشر المذهب، والتصنيف فيه، حتى أصبحت لهم مدرسةً متميزةً خاصة بهم داخل المذهب الشافعي، عرفت بطريقة العراقيين.[٢]

وقد ذكر بن الجارود كيف أخذ الإمام الشافعي –رحمه الله– الفقه وجمع بين أهل الحجاز وأهل العراق بقوله: "وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس، رحل إليه ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن جملا ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك، حتى أصل الأصول، وقعد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره. وعلا ذكره، وارتفع قدره، حتى صار منه ما صار".[٣]

رابعًا: المذهب الحنبلي: مؤسس المذهب هو الإمام أبو عبد الله، أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الذُّهلي الشيباني، ولد ببغداد، ونشأ بها، وتوفي فيها رحمه الله، ولد –رحمه الله– في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة (١٦٤هـ)، وتوفي ضحوة يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين (٢٤١هـ)، وكانت له رحلات إلى مدائن العلم، كالكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة.[٤]

---

(١)) علي جمعة، المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، ص٢٢.

(٢)) المصدر نفسه، ص٢٢.

(٣)) الشافعي، مسند الشافعي، ص٤. الرسالة، ص٧.

(٤)) يُنظر: وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٥٢–٥٣. علي جمعة، المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، ص١٩١.

تفقه على الشافعي حين قدم بغداد، ثم أصبح مجتهداً مستقلاً، وتجاوز عدد شيوخه المئة، وأكبَّ على السُّنة يجمعها ويحفظها، حتى صار إمام المحدثين في عصره.(١)

يقول أبو زهرة –رحمه الله–: "وعندما اعتزم أحمد في مستهل شبابه طلب الحديث، كان لا بد أن يأخذ عن كل علماء الحديث في العراق والشام والحجاز، ولعلّه أول محدث قد جمع الأحاديث في كل الأقاليم، ودوّنها، وإن مسنده لشاهد صادق الشهادة بذلك، فهو قد جمع الحديث الحجازي والشامي والبصري والكوفي جمعًا متناسقًا. اتجه إلى الحديث من سنة ١٧٩هـ واستمر مقيمًا ببغداد يأخذ من شيوخ الحديث فيها، ويكتب كل ما يسمع، حتى سنة ١٨٦هـ، وابتدأ في هذه السنة رحلته إلى البصرة، وفي العام الذي وليه رحل إلى الحجاز، ثم توالت رحلاته بعد ذلك...وإذا كان قد طلب الحديث سنة ١٧٩هـ، ولم يرحل رحلة علمية قبل ١٨٦هـ، فكأنه استمر يطلب حديث البغداديين نحو سبع سنين أو أكثر، لقد قصر الإمام أحمد نفسه في هذه السنوات السبع على حديث علماء بغداد وما يحفظون من فتاوى مأثورة، وأقضية للصحابة والتابعين في أبواب الفقه المختلفة".(٢)

كان إماماً في الحديث والسنة والفقه، قال عنه الشافعي حين ارتحل إلى مصر: "خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل".(٣)

المطلب الثاني: حركة التآليف الفقهية في العراق:

"شهد الفقه الإسلامي عصر ازدهار وتقدم في حياة أئمته الذين قامت مدراسهم في أمصار الأمة الإسلامية بالقرنين الثاني والثالث، الذين اشتهر منهم الأئمة الأربعة

---

(١)) يُنظر: وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٥٢-٥٣. علي جمعة، المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، ص١٩١.

(٢)) أبو زهرة، ابن حنبل حياته وعصره–آراؤه وفقهه، ص٢٢.

(٣)) الذهبي، تذكرة –طبقات– الحفاظ، ج٢، ص١٦.

وأصحابهم، ثم تلاميذهم من بعدهم. وكان التأليف في هذه الفترة استنباطًا للحكم من أدلته المستمدة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وسائر الأدلة التبعية المختلف فيها، وكان أسلوب الكتابة سهلاً مُيسرًا لا تعقيد فيه، فالعبارة واضحة، والحكم صريح، وأبواب الاجتهاد مفتوحة في الاجتهاد المطلق، ثم في الاجتهاد المذهبي، وطرائق الاستدلال بينة، وقلما توجد التفريعات الفرضية البعيدة الاحتمال، ورث العصر الحاضر ذلك التراث الفقهي القديم بما له وما عليه، في الوقت الذي تطورت فيه أساليب التأليف، وشملت التجديد في كل مادة من المواد، وأحس الناس بالحاجة إلى التجديد في أنماط التأليف الفقهي، فلجئوا تارة إلى الإخراج والتحقيق، وأخرى إلى البحث الموضوعي المقارن مع المذاهب، أو مع المذاهب والقوانين الوضعية، وكان للرسائل الجامعية في الماجستير والدكتوراه أثرها الطيب في ذلك، وإن كان أثرا محدودًا".[١]

وإذا أمعنا النظر حول التآليف الفقهية للمدرسة الفقهية في العراق وآثارها سنرى نتاجًا غزيرًا لا يستغني عنه أي طالب علم أو مهتم أو متخصص في أي عصر من العصور، فعلى سبيل المثال: أبو يوسف ومحمد بن الحسن من الحنفية خلّفا لنا إرثًا عظميًا، أبو يوسف كان له الفضل الأكبر على مذهب أبي حنيفة في تدوين أصوله، ونشر آراءه في أقطار الأرض، وللإمام أبي يوسف تآليف كثيرة، وهو أول من دون كتبًا في المذهب الحنفي، ومن كتبه التي وصلتنا كتاب (الخراج). أما محمد بن الحسن فقد صنف التصانيف الكثيرة التي حفظ بها فقه أبي حنيفة، فهو صاحب الفضل في تدوين

(١)) القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، ص٣٩٧-٣٩٨. بتصرف

المذهب الحنفي، وكتبه (ظاهر الرواية)[١] هي الحجة المعتمدة عند الحنفية.[٢]

وكذا المالكية: فقد برز نتاج فقهي غزير من قبل فقهائهم في العراق، فعلى سبيل المثال: القاضي أبو محمد، عبدالوهاب البغدادي، إمام المالكية في زمانه وصاحب التصنيفات الكثيرة، منها: (التلقين) وهو مختصر مفيد من أجود مختصرات المالكية، وكتاب (المعين على التلقين) وهو شرح لكتاب التلقين، ونحوه.[٣]

وكذا الشافعية: فالإمام الشافعي رحمه الله صاحب أول مدون في علم أصول الفقه ألا وهو (الرسالة)، وفي بغداد صنف كتابه القديم المسمى بـ (الحجة) الذي ضمن فيه مذهبه القديم، روى عنه كتابه القديم (الحجة) أربعة من أصحابه العراقيين وهم: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفراني، والكرابيسي، وأنفسهم رواية له: الزعفراني. ومن تلامذة الإمام الشافعي الذي كانت لهم نتاجات فقهية غزيرة كُثر: المُزني، إسماعيل بن يحيى، قال عنه الشافعي: "المُزني ناصر مذهبي"،[٤] له في مذهب الشافعي كتب كثيرة، منها المختصر

---

(١)) كتب ظاهر الرواية ستة وهي: المبسوط، الزيادات، الجامع الصغير، السير الصغير، السير الكبير، الجامع الكبير. نظمها ابن عابدين –رحمه الله – في حاشيته، ج١، ص٥٠، بقوله:

وَكُتْبُ ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ أَتَتْ ... سِتًّا لِكُلِّ ثَابِتٍ عَنْهُمْ حَوَتْ

صَنَّفَهَا مُحَمَّدٌ الشَّيْبَانِيُّ ... حَرَّرَ فِيهَا الْمَذْهَبَ النُّعْمَانِيّ

الْجَامِعَ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ ... وَالسِّيَرَ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ

ثُمَّ الزِّيَادَاتِ مَعَ الْمَبْسُوطِ ... تَوَاتَرَتْ بِالسَّنَدِ الْمَضْبُوطِ

(٢)) يُنظر: عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص١٦٠. وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٤٤.

(٣)) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٧، ص٢٢٠ وما بعدها.

(٤)) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٤٩٣.

الكبير المسمى المبسوط، والمختصر الصغير. أخذ عنه كثير من علماء خراسان والعراق والشام، وكان عالماً مجتهداً.[١]

وكذا الحنابلة: فالإمام أحمد لم يؤلف في الفقه كتاباً، وإنما أخذ أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته وغير ذلك. وله كتاب (المُسند) في الحديث، حوى نيفاً وأربعين ألف حديث، وكان ذا حافظة قوية جداً. ومن تلامذة الإمام أحمد بن حنبل الذي كانت لهم نتاجات فقهية غزيرة كُثر منهم: أبو بكر الخلال، أحمد بن محمد، جمع عن أصحاب أحمد فقهه، حتى عُدَّ أنه (جامع الفقه الحنبلي) أو ناقله أو راويه.[٢] ثم لخص ما جمعه الخلال: أبو القاسم، عمر بن الحسين الخرقي البغدادي (المتوفى عام ٣٣٤هـ)، له كتب كثيرة في المذهب، منها مختصره المشهور، الذي شرحه ابن قدامة في كتابه (المُغني) وكان له أكثر من ثلاث مئة شرح.[٣]

من خلال ما سبق يظهر لنا الكنز العظيم والغزارة في المؤلفات الفقهية، التي تركتها المدرسة الفقهية في العراق، وهذا مما لا شك فيه ساهم وعزز من النهضة المعرفية التي كانت موجودة آنذاك، ولا يسعني القول في هذا الجانب أكثر مما قاله الإمام الشافعي –رحمه الله–: "الناس عيالٌ على أهل العراق في الفقه"[٤] وما تيسر إيراده ما هو إلا غيض من فيض إبداعهم رحمهم الله، وجزاهم الله عنا خير الجزاء.

---

(١)) وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٥٠ و ص٥٢.

(٢)) عبدالكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص١٧٢.

(٣)) وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٥٣ و ص٥٥.

(٤)) الرازي ابن أبي حاتم، آداب الشافعي ومناقبه، ص١٦١.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبيه صاحب المعجزات، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه...أما بعد:

خَلُص البحث في خاتمته إلى **النتائج** الآتية:

١. المدرسة الفقهية هي: طريقة ينتهجها الفقيه، فيأخذها عنه غيره، ويتابعونها عليها، وبذلك تُصبح تيارًا ومسلكًا، يُعْرَفُون بها دون غيرهم.
٢. المقصود بها في العراق: المذاهب الفقهية التي نشأت وبرزت وانتشرت في العراق، والتي تعرف باسم مدرسة أهل الرأي في العراق، والتي كان مهدها في الكوفة ثم انتشرت لتصبح تيارًا ومسلكًا، لكل من يتبع طريقتهم في الفقه.
٣. المدرسة الفقهية في العراق ساهمت وعززت بشكل كبير في النهضة المعرفية؛ وذلك من خلال نشأة المذاهب الفقهية وظهورها وبروزها وانتشارها، وقد مر معنا في ثنايا البحث؛ حتى المذهب المالكي كان له انتشار وبروز في العراق على الرغم من أن نشأته في المدينة –صلى الله على ساكنها–.
٤. غزارة الإنتاج والتأليف الفقهي الذي خلّفته هذه المدارس، والذي ساهم بشكل فاعل في النهضة المعرفية.

أما **التوصيات** التي انتهى إليها البحث فهي الآتي:

١. أن تكون هناك مؤتمرات وندوات علمية تركز على النهضة المعرفية من جانب آخر، ألا وهو الجانب النظري التأصيلي، من حيث المفهوم، والأركان، والضوابط، والمعالم، ونحو ذلك.
٢. المدرسة الفقهية في العراق ساهمت في النهضة المعرفية؛ كما ظهر ذلك من خلال هذا البحث الموجز، وهناك علوم أخرى ساهمت كذلك، تحتاج إلى أن يُسلط الضوء عليها وإبرازها، من خلال البحوث العلمية والمؤتمرات والندوات، كعلوم القرآن والسُنَّة، والطب، والفلك، ونحوها.

قائمة المصادر والمراجع

- البخاري، عبد العزيز بن أحمد. كشف الأسرار شرح أصول البزدوي. دار الكتاب الإسلامي.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح. دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، ط١.
- البيضاوي، عبدالله عمر. منهاج الوصول إلى علم الأصول. دار ابن حزم، بيروت–لبنان، ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨م، ط١.
- التفتازاني، مسعود بن عمر. شرح التلويح على التوضيح. مكتبة صبيح، مصر.
- الجرجاني، علي بن محمد. التعريفات. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م، ط١.
- جمعة، علي. المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية. دار السلام، القاهرة–مصر، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م، ط٢.
- ابن أبي حاتم، عبدالرحمن بن محمد. آداب الشافعي ومناقبه. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م، ط١.
- الخطيب، أحمد بن علي. تاريخ بغداد. تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م، ط١.
- الذهبي، محمد بن أحمد:

تذكرة –طبقات– الحفاظ. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، ط١.

سير أعلام النبلاء. دار الحديث، القاهرة–مصر، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.

- الزبيدي، محمد بن محمد. تاج العروس من جواهر القاموس. دار الهداية.
- الزحيلي، وهبة مصطفى. الفقه الإسلامي وأدلته. دار الفكر، دمشق–سوريا.
- أبو زهرة، محمد:

أبوحنيفة حياته وعصره–آراؤه وفقهه. دار الفكر العربي، القاهرة–مصر، ١٩٩٧م.

الشافعي حياته وعصره–آراؤه وفقهه. دار الفكر العربي، القاهرة–مصر، ١٤٣٣هـ–٢٠١٢م.

إبن حنبل حياته وعصره–آراؤه وفقهه. دار الفكر، القاهرة–مصر، ٢٠٠٨م.

- زيدان، عبدالكريم. المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. دار عمر بن الخطاب، الإسكندرية–مصر، ١٩٦٩م.
- الإسكندري، محمد بن عبدالواحد. التحرير في أصول الفقه. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- الشافعي، محمد بن إدريس. مسند الشافعي. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤٠٠هـ.
- الأشقر، عمر سليمان. المدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية. دار النفائس، عمّان–الأردن، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م، ط٢.
- الصلاحين، عبدالمجيد. والبريشي، إسماعيل. سمات المدرسة العراقية في المذهب المالكي. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد السادس، العدد الأول، ١٤٣١هـ–٢٠١٠م.
- ابن عابدين، محمد أمين. رد المحتار على الدر المختار–حاشية ابن عابدين–. دار الفكر، بيروت–لبنان، ١٤١٢هـ–١٩٩٢م، ط٢.
- عويضة، كامل محمد. أعلام الفقهاء والمحدثين–الإمام أبو حنيفة. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- ابن فارس، أحمد. مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م.

- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م، ط٨.
- القاضي، عياض بن موسى. ترتيب المدارك وتقريب المسالك. مطبعة فضالة، المحمدية–المغرب، ط١.
- القطان، مناع بن خليل. تاريخ التشريع الإسلامي. مكتبة وهبة، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م، ط٥.
- إبن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م، ط٢.
- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر، بيروت–لبنان، ١٤١٤هـ، ط٣.